الأكاديمية للدراسات
الإجتماعية والإنسانية

نظرية الحجاج من المقاربة المنطقة إلى المقاربة اللسانية

The Argumentation Theory from Logical Approach to Linguistic Approach

د. بوقمرة عمر
أستاذ محاضر قسم "أ"
قسم اللغة العربية، كلية الأدب والفنون، جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف
DR.BOUGUEMRA@gmail.com

ملخص

يجتهد هذا البحث في تتبع المراحل التطورية التي قطعتها النظرية الحجاجية الغربية، بداية من مرحلة النشأة مع السفسطائيين، إلى مرحلة النضج مع أرسطو، فمرحلة الضعف و الانحطاط منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية إلى منتصف القرن العشرين، وصولا إلى مرحلة التجديد التي بدأت بظهور كتاب "البلاغة الجديدة" للفيلسوف البلجيكي "شايم بيرلمان" وزميلته "أولبريشت تيتيكا" عام 1958م، وفي العام نفسه ظهر كتاب لـ"ستيفن تولمين" بعنوان" استعمالات الحجاج"، وتوالت البحوث في هذا الاتجاه مع ميشال مييرر وآخرين، وكلها تدور حول منطق أرسطو، حتى ظهرت نظرية الحجاج في اللغة لـ "أزفالد ديكرو" عام 1973م، وهي تتعارض مع التصورات الحجاجية للبلاغة الأرسطية، أو البلاغة الجديدة لبيرلمان ومن معه، إنها نظرية لسانية تهتم بالوسائل اللغوية وإمكاناتها الطبيعية بعيدا عن المنطق وصرامته.

الكلمات الدالة: الحجاج، البلاغة، المنطق، السفسطة، اللغة.

Abstract

This research strives to observe the evolutionary periods that made the western argumentation theory; the first period with sophists, the perfection period with **Aristotle**, the period of weakness and decadence since the fall of the roman empire to the mid-twentieth century, starting to the renewal phase, which began the appearance of the book " new Rhetoric " for Belgian philosopher " **Chaim Perlman** "and his colleague" Olbrechts-Tyteca" in 1958. And in the same year appeared the book of" Stephen Toulmin, which was titled "uses of argumentation ", rolled researchs in this direction with **Michel Meyer** and others, all of which revolve around the logic of Aristotle, Even emergence the argumentation theory in the language for " **Oswald Ducrot** " 1973, which is incompatible with the Aristotelian concepts about argumentation and eloquence, or the new rhetoric of Perelman and those with him. It is a lingual theory that studies language means and its natural abilities, but without dealing with logic and its rigor.

Keywords: *Argumentation, Rhetoric, Logic, Sophistry, Language.*

مقدمة

إن المتفحص للجهود الغربية القديمة التي يمكن أن تكون روافد حقيقية ومهمة للحجاج؛ ليجد ثراء يعسر عليه الإحاطة بكل جوانبه وأعلامه، ومرد ذلك لطول الفترة وتراكم الأفكار وتناطحها، وعلى الرغم من هذا كله فقد ميز الباحثان الغربيان المحدثان: بروتون فيليب وقاثر جيل(BRETON PHILIPPE ET GAUTHIER GILLES) في مؤلفهما: تاريخ النظرية الحجاجية HISTOIRE DES THEORIES DE L'ARGUMENTATION بين أربع مراحل قطعتها النظرية الحجاجية عبر تاريخها الطويل وهي:

- **مرحلة التأسيس**: وتتمثل في المواجهات الخَطابية والتعليمية للملقنين الذين أخذوا على عاتقهم مهمة إعداد وتكوين المرافعين، ويمثل هذه المرحلة السفسطائيون، وهي مرحلة ترَّكُز الديموقراطية اليونانية، وتمتد من منتصف القرن الخامس قبل الميلاد إلى منتصف القرن السادس قبل الميلاد، أي طيلة قرن من الزمان .

- **مرحلة النضج والاكتمال**: ويمثلها الفيلسوف أرسطو الذي قطع العلاقة مع التقليد التكنوقراطي السائد عند السفسطائيين، وتمتد تقريبا بين عامي 329ق.م و323ق.م، حيث استلهمت خطابته من الثقافة الحجاجية التي راجت وتدافعت في رحم الجمهورية، وبدايات الإمبراطورية التي حظيت بخطباء مشهورين أمثال: سيشرون وكنتليانCICERON (ET QUINTILIEN) لذين حرصوا على بناء قوانين خطابية إقناعية.

- **مرحلة الأفول والتراجع**: وتعود بدايتها إلى سقوط الإمبراطورية الرومانية، واستمرت إلى منتصف القرن العشرين.

- **مرحلة الانبعاث والتجديد**: وهو ما عرف بالخطابة الجديدة، وتبدأ هذه المرحلة بظهور الفيلسوف ورجل القضاء البلجيكي شايم بيرلمان، وكذلك ستيفن أدلسون تولين(TOULMIN)، ولا تزال مستمرة حتى الآن.[1] (علي الشبهان، 2010م، ص 64).

وسنحاول أن نقدم عرضا ولو موجزا حول المرحلة الأولى – السفسطة – وما تلاها من انتقادات في المراحل التالية أفضت إلى تبلور الدرس الحجاجي اللغوي في العصر الحديث كأحد فروع علم اللغة، مع الإشارة إلى أن التركيز سيكون منصبا على أهم أعلام هذه المراحل وليس المراحل ذاتها.

2ـ الحجاج في الدرس اليوناني

1.2 الحجاج عند السفسطائيين

السفسطة في أصل معناها اللغوي اليوناني SOPHIA تعني الحكمة، وبإضافة اللاحقة تصير SOPHISTE أي السفسطائي، وتعني المنتسب للحكمة، أي الحكيم، وهو في الاستعمال اللغوي القديم الناظر في حقيقة الوجود نظرا شموليا، هدفه الإحاطة بمبادئه وأسسه الأولى كما هي فعلا، وليس كما يصورها له هواه، وواضح أن السفسطائي حين يسبغ على نفسه هذا الوصف أنه يدعي لنفسه بلوغ مرتبة الحكمة. أما الفيلسوف فقد كان حريصا على إضافة السابقة PHILO والتي تعني المحبة، وذلك دلالة منه على روح التواضع، وتجسيدا لجوهر الفلسفة ولبّها المتمثل في البحث الدائم عن الحقيقة، والاقتراب منها دون الوصول إلى حد التطابق معها أبدا.

ولاشك أن ظهور المدَّعِي (الحكيم) والمحب(الفيلسوف) على صعيد واحد يرجح كِفَّة الثاني على الأول، فالناس عامة لا يؤمنون بما يدّعيه الإنسان لنفسه حتى وإن كان متصفا به[2] (رشيد الراضي،2010، ص 12)؛ هذا من الناحية اللغوية. أما من الناحية الاصطلاحية فهي" تيار فكري ظهر في العالم الإغريقي وقويَ بأثينا في القرن الخامس قبل الميلاد بالخصوص كما ذكرنا، والصفة " سوفيستاس"(SOPHISTES) كانت تعني في الأصل لقب تقدير، ومعناها الاشتقاقي الحكيم والرجل ذو الكفاءة المتميزة في كل شيء، فبروميتي PROMETHEE – وهو من هو في الأسطورة القديمة – كان يلقب بالسفسطائي".[3](هشام الريفي، 1998، ص 54)، ويمكن تلخيص أهم أفكارها فيما يلي:

1) رفعت معيار "الإنسان مقياس كل شيء" وولت ظهرها لكل القيم الموضوعية، والمعايير الثابتة سواء ما تعلق منها بالفكر والاعتقاد أو السلوك والأخلاق، فالحقيقة عندهم ما يراه الفرد حقيقة، والفضيلة ما يبدو له فضيلة، وكذلك الأمر بالنسبة لبقية الأمور من آداب وأخلاق وغيرها، وبعبارة أخرى السفسطائيون يؤمنون بنسبية الحقيقة ومن ثم تغيرها من فرد لآخر، ومن مجتمع لآخر[4](رشيد الراضي،2010، ص 14-13)، إنه تحويل للاهتمام من الطبيعة إلى الإنسان ومن الموضوعية إلى الذاتية.

2) ولتحقيق هذا الغرض ركبوا وسيلة اللغة فعنوا " ببنية كل من الكلمة والجملة، وبحثوا في السبل الممكنة التي بها يتحقق الإقناع وتغيير مواقف الآخرين، وقد استعانوا في سبيل تحقيق تلك الغاية بخبرة بالغة في مقامات الناس والقول معا، وأيضا بآليات إجراء اللغة بحسب المقاصد والظروف التواصلية ".[5](محمد سالم محمد الأمين الطلبة، 2008م، ص25)، وقد أدّى هذا الصنيع دورا فاعلا في تطوير البلاغة القولية بصفة خاصة، والحياة الفكرية الإغريقية بصفة عامة، إذ كانوا يعقدون محاورات فلسفية ذات منزع لغوي توليدي للأفكار " الأمر الذي أسفر عن اهتمام بالغ بالطرائق الحجاجية والإقناعية من ناحية، وأدى إلى تراكم معرفي كبير شكّل النواة لمعظم الدراسات القديمة والحديثة للفلسفة اليونانية من ناحية ثانية"[6] (محمد سالم محمد الأمين الطلبة، 2008م، ص 24).

3) استندت ممارستهم للحجاج إلى تصورهم "للنافع"، ولم يعلقوا النافع "بالخير" بل علقوه "باللذة"، وحسب ما ذكره أفلاطون " لذة الاستهواء بالنسبة إلى المقول إليه، ولذة النفع

بالنسبة إلى القائل".[7](هشام الريفي، 1998، ص60).

ويبدو أن هذه الفكرة توارثوها عن كوراكس CORAX وهو خطيب صقلي الأصل عاش في القرن السابع قبل الميلاد، حيث أثر عنه أنه كان يقول لتلامذته:" إن انتدبت للدفاع في قضية تعَدٍّ بالعنف وكان موكلك ضعيف البنية فقل: إنه من غير المحتمل لضعف بنيته أن يكون هو البادئ بالظلم، فإذا كان موكلك قوي البنية وكانت القرائن جميعا ضده في الظاهر فقل: إنه كان من المحتمل جدا أن يتصور أنه المعتدي، إلى حد أنه من غير المحتمل أن يكون فعلا كذلك".[8](هشام الريفي، 1998، ص60).

وقد أوغل تلامذته في العمل بهذه النصيحة التي تستثمر في المحتمل LE VRAISEMBLABLE ، وتوجيهه في النفع الذي يقصده المُحَاجّ لدرجة أن صار ذلك منهم يعرف باسمه (CORAX).

4) إن تعليق النافع باللذة بدل الخير يعني استعمال كل ما يحقق اللذة من طرائق ووسائل دون أدنى اعتبار لثنائية الحق والباطل، والخير والشر، " لقد أصبح الكلام عندهم فتاًنا ومخادعا بعد أن كان موجدا للحقيقة، ومقدما للمعرفة، وأصبح أيضا أداة ووسيلة إقناع واقتناع، تحملك على الاعتقاد والظن بشتى الوسائل من دون أن تعير اهتماما للحق والباطل".[9](الزاوي بغورة، 2005، ص 12).

اشتهر السفسطائيون بالمهارة في هذه الصناعة لدرجة التباهي بذلك، فقد كان (بروتاغوراس) حسب ما روي يفخر بالقدرة على" جعل أضعف الحجج تبدو أقواها" [10] (روبير بلانشي، 2004م ص9)، وقد انتهى بهم هذا المذهب إلى قناعة محتواها أن اللجوء للحيل الخطابية والألاعيب القولية أمر مشروع، إذا كانت محصلته في النهاية تحقيق مصلحة شخصية راجحة؛ ولذلك حرصوا على ابتداع وتوظيف الأساليب البلاغية والخطابية والتقنيات اللغوية المعينة على كسب تعاطف الجمهور وتأييده.[11] (محمد سالم محمد الأمين الطلبة، 2008م، هامش ص 31).

5) جعل السفسطائيون الخطابة أهم الصنائع الإنسانية، وعدُّوا جميع الصنائع الأخرى من طبّ وهندسة ومعمار وغيرها لا يمكن أن تحقق للإنسان المدينة والمدنية، و" إنما تؤسسان في نظرهم اعتمادا على بلاغة القول وأهل القول، وليس على أعمال أهل الصنائع والحرف".[12] (محمد سالم محمد الأمين الطلبة، 2008م، ص25) فالخطيب (RHETEUR) عندهم بيده مقاليد كل شيء " ألم يذكر "قرجياس" لسقراط أن حصون أثينا وموانيها، - أي فضاءات الاقتصاد والقوة - إنما بناها أصحاب القول لا أصحاب الصنائع".[13] (هشام الريفي، 1998، ص55).

6) قال"بروتاغوراس": أوافق على أنني سفسطائي ووظيفتي هي تعليم الناس".[14] (هشام الريفي، 1998، ص61) ولاشك أن الفن المقصود بهذا التعليم هو فن الخطابة، حتى أنهم اتخذوها مهنة يلقنونها أبناء الأعيان وغيرهم من الراغبين في ذلك، مقابل مبالغ مالية هائلة، إنه تلقين لآليات إنتاج الخطاب حتى لا تدرك العامة تلك الآليات، وبالتالي يهون عليهم إقناعهم وإيقاعهم تحت سلطة تأثير القول، دون مقاومة أو انتباه إلى ما قد يكون فيها من خداع ومغالطة.[15] (محمد سالم محمد الأمين الطلبة، 2008م، ص25).

وقد تمكنوا من إقناع صفوة المجتمع آنذاك بأهمية أخذ دورات ودروس في هذا التخصص، إن كانت بهم حاجة إلى امتلاك مقاليد الحكم، مركزين في ذلك على فئة الشباب من ذوي اليسار، وكانت غايتهم تعليم تلامذتهم " فن الخداع بواسطة استدلالات مضللة".[16] (روبير بلانشي، 2004م ص8) أي فن خدمة الفكرة على أي وجه، وبأي وسيلة دون مراعاة لثنائية الحق والباطل، أو الصواب والخطأ إنه " ليس من الضروري أن تعلم شيئا عن الموضوع لتجيب، وقال:" إن في استطاعته أن يجيب كل سائل عن كل ما يسأل، فهم يعلمون كيف يكسبون الخصم بشتى الوسائل، كاللعب بالألفاظ، والاستعارات، والكنايات الجذابة، بخداع المنطق وتمويه الحقيقة؛ ومن أجل ذلك سمِّي اللعب بالألفاظ والتهريج في الحجج سفسطة".[17] (أحمد أمين وزكي نجيب محمود 1964، ص 99).

2.2 بَيْنَ جدل زينون وحجاج السفسطائيين

نشأ الجدل " DIALECTIC " مع الفيلسوف زينون الأيلي (490 / 420) (ZENON D'ELEE ق.م) الذي دافع عن مذهبه في الوجود القائل بالوحدة والسكون في مقابل الفيثاغورية القائلة بأن الموجودات مؤلفة من أعداد أي وحدات منفصلة، ومن ثم فهي متحركة. لقد خلَص إلى القول بوحدة الله، وحججه على بطلان الحركة أربع مشهورة، وهي: حجة العدّاء، وحجة أَخِيل والسلحفاة، وهي تمثيل للأولى، وحجة السهم، وحجة الملعب، ولكن حججه تنطوي على مغالطات".[18](جورج طربيشي، 2006م، ص 346-347)، ويمكن الوقوف على ذلك بفحص حجة الملعب والتي مفادها انطلاق عدّاءين بسرعة واحدة في اتجاهين متقابلين، بحيث يلتقيان بعد مرورهما بجسم ثابت (المقصود به جزء من مساحة الملعب)، وقد جرى كل منهما بالنسبة للآخر بسرعة هي ضعف السرعة التي يقطعان بها الجسم الثابت (الملعب) كما هو موضح في الشكل التالي:

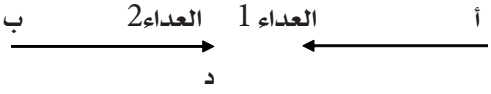

(د) هي نقطة التقاء العداءين وهو منتصف الجسم الثابت أي : الملعب.

وإذا كان مسارهما عبارة عن خط مؤلف من وحدات منفصلة - حسب رأي الفيثاغورية- أي من نقط تقطع في آنات (أوقات) منفصلة متجزئة فيكون" الآن" اللازم لقطع نقطة في الجسم الثابت، نصف الآن اللازم للمرور على نقطة من أحد العداءين

إلى النقطة الأخرى؛ فصار كأن حركة العدائين المتساويين تارة تقطع المسافة في زمن معين وتارة أخرى في ضعف هذا الزمن، فتكون النتيجة الزمن مساويا لضعفه وهذا خلف فالحركة إذن ممتنعة " ولكننا نكشف هنا عن مغالطة صريحة، وهي أن كلا من العدائين يقطع نصف الجسم الثابت لا كله".[19] (محمد على أبو ريان، 2007م، ص 78 – 79).

وقد استثارت أغاليط زينون فلاسفة عصره للرد عليها، ولكن هذا الفن الذي كان غرضه البحث عن الحقيقة والوصول إليها عن طريق بحث الفكرة وما يضادها عبر آلية السؤال والجواب سرعان ما تحول مع السفسطائيين إلى منهج مهني تعليمي نقدي، أهّلته الظروف السياسية السائدة آنذاك حيث بلغت الديمقراطية الأثينية ذروتها، وكان لابد للسياسي الراغب في إحراز النصر على خصومه (الأحزاب) أن يتصف بالقدرة على الجدل، والمناقشة ومقارعة الخصوم، ودحض حججهم صحيحها وباطلها، وإثبات حججه الصحيحة والكاذبة هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن اختلاط اليونان مع الفرس إما عن طريق الحروب، أو عن طريق الرحلة؛ مكنهم من الاطلاع على عاداتهم وتقاليدهم وأديانهم وحضارتهم، فأخذوا يقارنون ويوازنون فتكونت لهم ملكة النقد وتكسرت على إثرها النرجسية اليونانية، إذا كانوا يعتقدون أنه ليس على وجه الأرض من يدانيهم علما ودينا وتقاليد، فهم الأحرار وغيرهم العبيد، وعن هذه النظرة الواسعة للحضارات ظهرت فكرة النسبية في التقاليد والعادات والأديان، وحلت محل الصحة المطلقة التي طالما ناضل لأجلها سقراط، فكل نظام وكل تقليد هو حق وخير لكن بالنسبة للمجتمع الذي يجري فيه، ولكنه ليس خيرا ولا حقا بالنسبة لبقية المجتمعات، وكذلك الدين فهو لا يأتي من مصدر إلهي وعليه فهو ليس نظاما مطلقا، بل هو أفكار تواضع وتعاقد عليها المجتمع حسب حاجته ومراحل تطوره، ولذلك هاجموا الدين المطلق وأنزلوا مكانه الدين النسبي قياسا إلى المجتمع.[20] (محمد على أبو ريان، 2007م، ص91-92).

وهنا يستفزني السؤال التالي: لم لا يكون قد ورث السفسطائيون هذه الحيل والأغاليط عن زينون وقد ثبت عليه ذلك؟ يجيبنا عن هذا السؤال أندريه لالاند في موسوعته الفلسفية حين عرف (SOPHISME) بأنها:"حجة صالحة في الظاهر غير صحيحة في الحقيقة يجري التذرع بها لتوهيم الآخرين [مخاتلة]، أو يأخذ بها المرء بدافع من حب الذات والمصلحة أو الهوى".[21] (أندريه لالاند، 1996، مج3، ص 1315).

لكنه عندما تطرق لمصطلح (PARALOGISIMIE) قال:" استدلال عقلي فاسد مرادف للسفسطة، لكن من دون العلامة الازدرائية التي عادة تلحق بهذه الكلمة الأخيرة (بنية خداع الغير)، المغالطة ترتكب بحسن نية"[22] (أندريه لالاند، 1996، مج2، ص 937 – 938)، فالسفسطة نية الخداع فيها مستحضرة ومرصودة مسبقا، أما مغالطات زينون فعن حسن نية، ولولا هذا الفرق الدقيق لكانت السفسطة امتدادا لعمل بدأه زينون.

3.2 التقويم الأفلاطوني للسفسطائيين

أفرد أفلاطون لمواجهة خطر السفسطائيين محاورتين هما: محاورة "قرجياس"، ومحاورة "فيدر"؛ ومن خلال وقوفنا عليهما يمكن لنا أن نتبين أهم الانتقادات التي وجهها أفلاطون للسفسطائيين.

1.3.2 محاورة "قرجياس": كتب نصا شهيرا في " تمجيد هيلينة " ELOGE D'HELENE، وهيلينة عند الإغريق أنموذج المرأة الفاتنة المهلك FEMME FATALE، أخرجها فيه من تلك الصورة القبيحة إلى صورة أخرى محمودة، وسيلته في ذلك سلطة القول، سالكا مسلك توجيه الاحتمال بحسب النفع، ومما جاء في ذلك التمجيد " إن الخطاب جبار ذو سلطة كبرى، فهذا العنصر المادي الذي هو غاية في الصغر وغير مرئي البتة، يرفع الآثار الإلهية إلى منتهى كمالها".[23] (هشام الريفي، 1998، ص61).

في الجزء الأول من المحاورة بحث أفلاطون موضوع الخطابة على ضوء ثنائية العلم SCIENCE والظن OPINION، وفرَّع الإقناع قسمين: إقناع يقوم على العلم، وإقناع يقوم على الظن، وهذا الأخير هو موضوع الخطابة السفسطائية.

ولما كان الأول قائما على مبادئ صادقة وثابتة بل أزلية عند القدامى، فهو مفيد ومنتج للمعرفة (SAVOIR). أما الثاني فقائم على الممكن PROBABLE والمحتمل VRAISEMBLABLE ؛ ولذلك فهو غير مفيد ولا ينتج معرفة بل يخلق اعتقادا CROYANCE، وفي الجزء الثاني من المحاورة بحث أفلاطون وظيفة الخطابة على ضوء ثنائية الخير (BIEN) واللذة (PLAISIR) في إطار تصوره لما يمكن أن تحققه للإنسان من سعادة بدنيا وروحيا، وذكر أن هناك أربع صنائع تحقق له الخير وهي: الطب والرياضة البدنية، والعدل والتشريع، وفي المقابل هناك صنائع أربع تحقق للإنسان اللذة لا الخير وهي: الطبخ (CUISINE)، والزينة (TOILETTE)، والخطابة (RHETORIQUE) والسفسطة)[24].(LA SOPHISTIQUE) هشام الريفي، 1998، ص64-63).

2.3.2 محاورة "فيدر": هو واحد من شباب أثينا الذي فتن بالحجاج السفسطائي، وهذا هو سبب المحاورة ف"فيدر" الشاب المثقف الذي خالط الفلاسفة والسفسطائيين معا يتلو على سقراط تلميذ أفلاطون قولا حجاجيا أنشأه " ليزياس" (LYSIAS)؛ أحد السفسطائيين، وصاحب مدرسة لتعليم الخطابة بضواحي أثينا، مبديا شديد إعجابه بمهارته في استحضار الحجة وبناء الأسلوب، ويبدو أن المحاورة قد استهلت بعبارات تبرز مدى الافتتان والعشق الذي يكنه سقراط وأفلاطون للقول الحجاجي، لدرجة أنه -سقراط- رجل يعذبه مرض سماعه القول الحجاجي.[25] (هشام الريفي، 1998، ص69).

ونلاحظ أنهما (سقراط وأفلاطون) قد اختارا إستراتيجية

تضامنية مع هذا الشاب فيدر، وهي إستراتيجية يحاول فيها المرسل أن يوطد العلاقة بينه وبين المرسل إليه، وذلك بتعبيره عن مدى احترامه لهذه العلاقة إن وجدت، والمحافظة عليها وتطويرها، وذلك بإزالة معالم الفوارق بينهما، وبصورة مختصرة هي محاولة التقرب من المرسَل إليه، وإن لم توجد فإنه يسعى لتأسيسها كأن يتقرب منه بما يجعله يثق بأنه يميل إليه طبيعيا، دون أن تكون هناك دوافع من ورائها منفعة خفية.

وتُصْطَفَى هذه العلاقة الإستراتيجية بتأثير عاملين هما:

أ) العلاقة السابقة بينه وبين المرسل إليه، وهي نسبة تتراوح بين الحميمية والعدم.

ب) السلطة التي قد يمتلكها أحد الطرفين على الطرف الآخر، فقد يعلو أحدهما على الآخر، وقد يساويه، وقد تنعدم عندما لا تكون بينهما أي علاقة.[26] (عبد الهادي بن ظافر الشهري، 2004م، ص 256 - 258).

وجليٌّ أن العلاقة ليست حميمة وليست معدومة، لأن فيدر خالط الفلاسفة والسفسطائيين، أما السلطة فهي معدومة، وانبهار "فيدر" بخطاب (ليزياس) ودفاعه عنه في أول الأمر دليل على ذلك، وبعد التصريح بهذه الإستراتيجية قام سقراط بإنشاء نص حاكى فيه بعض حجاج (ليزياس) دون بعض قاصدا بذلك الإشارة إلى إمكانية الخروج عن الرأي الشائع إلى ما يريد أن يجر سامعيه إليه، ثم عارض نصه بنص آخر فيه حجاج مضاد، وما انتهى سقراط من قراءة النص حتى سارع " فيدر" إلى الاعتراف بإعجابه بحجاجه واصفا " ليزياس " بالخطيب الباهت".[27] (هشام الريفي، 1998، ص70).

لقد عمد سقراط إلى حجج قائمة على مبدأ الفصل المفهومي حسب تعبير بيرلمان وتيتيكا، وهو نوع من الحجج قائم على مبدأ الفصل بين جملة من المفاهيم والتصورات التي كان بينها نوع من التقارب والتواصل؛ " إنه مبدأ القطع بالحقائق الحادثة التي تحررت من كل زيف، وصَفَا معدنها من كل كدر، إذ تمايزت عناصرها وبان فيها الحق من الباطل، والظاهر من الحقيقة ".[28](علي الشبهان، 2010م، ص316). إنه استدراج أفلاطوني لإخراج الخصم مما يعتبره الفيلسوف قول الظاهر إلى قول الحقيقة ، والحقيقة هي فضاء القول الأصيل عنده".[29] (هشام الريفي، 1998، ص70).

3.3.2 أفلاطون يصلح ما أفسده السفسطائيون

لقد أحدث السفسطائيون هزة عنيفة في المجتمع الأثيني على مستوى العقائد والأخلاق تشكيكا وتهديما؛ فانبرى المحافظون للرد عليهم ودحضهم، وكان سقراط خصمهم العنيد بجدله، الذي يعد صورة متطورة لجدل زينون في البحث عن الحقيقة، ولكن بأسلوبهم نفسه القائم على إيقاع الخصم في التناقض بطريقة تهكمية، وقد كلفه ذلك الامتثال أمام المجلس النيابي في أثينا وأدين، وحكم عليه بالإعدام بتجرع السم، ولم يحاول تبرئة نفسه على حساب مبادئه التي يراها حقا مطلقا.[30] (محمد على أبو ريان، 2007م، ص99).

حمل من بعده المشعل تلميذه أفلاطون الذي لم يفارقه إلى يوم محاكمته، وقد تركت محاكمة شيخه سقراط غير العادلة اشمئزازا كبيرا من جرائم الأحزاب السياسية المختلفة؛ التي تداولت على كرسي الحكم، وكل ذلك في تقديره نتاج الفكر السفسطائي الذي تشبع به هؤلاء السياسيون أيام الطلب، فاعتزل الناس في مغارة هو وتلميذ آخر لسقراط يدعى إقليدس، ثم ارتحل إلى عدة بلدان منها: مصر القديمة، وجنوب إيطاليا، وفي عام 387 ق.م عاد إلى أثينا وقد بلغ سن الأربعين مقتنعا بالإصلاح عن طريق التعليم، فأسس أول معهد للتعليم العالي عرف باسم الأكاديمية نسبة إلى البستان الذي شّيد عليه.[31] (جورج طربيشي، 2006م، ص71-72).

و تركز عمله الإصلاحي في هدم ما بناه السفسطائيون واصفا إياهم بأدعياء العلم والمعرفة، وأن ما يدّعونه مجرد ظنيات مبعثها الهوى واللذة، وضررها على القيم والأخلاق واليقين والإيمان كبير ويجب التحذير منها، ولذلك فسمات القول السفسطائي هي أنه قول إثباتي غير جدلي أي لا يقوم على المساءلة، يعقده صاحبه على الظن لا على العلم -أي مقدماته ظنية - هدفه الإقناع وركيزته اللذة لا الخير، فهو حجاج استهواء لا أكثر.[32] (هشام الريفي، 1998، ص56).

حاول أفلاطون التأسيس للحجاج الأخلاقي الذي يمكن وصفه بالمثالي؛ فإذا كان خصومه يهتمون بالشكل في الحجاج - اللغة - فهو على العكس من ذلك يرى أن المبالغة في تحسين العبارة وتنميقها يؤدي إلى تخلخل العلاقة بين الفكر واللغة؛ وبالتالي فالجمال عنده هو البحث عن الحقيقة والفضيلة، فالقول هو أخص خصائص الإنسان من حيث قدسيته ومثاليته وترابط أجزائه؛ ولذلك يجب أن تكون الفضيلة قوامه، وبما أن الفكر والحقيقة قضيتان مجردتان فإن الإنسان كلما تجاوز الملموس وتباعد عنه كلما اقترب من الحقيقة، وهي فكرة تتعلق بنظريته في المثل التي ترى أن عالم المحسوسات ما هو إلا عبارة عن إثارة وتذكير بعالم الغيبيات[33] (محمد سالم محمد الأمين الطلبة، 2008م، ص28 -29)، وهكذا تحول مع أفلاطون الجدل إلى منهج علمي يرتقي بالعقل من عالم الموجودات إلى عالم المعقولات.

4.2 الحجاج عند أرسطو من الممارسة الواعية إلى القواعد الوافية

للجدل تاريخ طويل قبل أن يصل إلى مرحلة النضج والصيغة العلمية، شأنه في ذلك شأن بقية العلوم، ويمكن على العموم التمييز بين ثلاث مراحل وهي:

- مرحلة الممارسة الواعية للجدل لكنه غير مسبوك في نظرية، أي دون أن يمارس كعلم له أطره ومنطلقاته ومصطلحاته، ويمثلها الفيلسوف زينون الأيلي (490 /420 ق.م).

- مرحلة الشرح والتنظيم العام لهذه القواعد المستعملة في

الحجاج الجدلي، وهذا عمل قام به أرسطو في كتابه المواضع.

- مرحلة التجريد والانتقال من دراسة المحاجة الجدلية، إلى نظرية الاستدلال الصوري عامة أي إلى المنطق، وهذا هو التطور الذي حصل من المواضع إلى العبارة إلى التحليلات.[34] (أندريه لالاند، 1996، مج1، ص 302).

أفاد أرسطو من آراء أسلافه الفلسفية بصفة عامة، وآراء شيخه أفلاطون بصفة خاصة، إذ يعد الفيلسوف الوحيد الذي وصلتنا كتاباته كاملة تقريبا، وعلى العموم فإن أغلب مصادر الفلسفة اليونانية في الفترة السابقة على سقراط ضاعت، ولولا ابتكار الفلاسفة اليونان لسُنَّة سبر الآراء السابقة واستطلاعها، وهو ما يعرف بـ DOXOMETRIE لكان الضرر أكبر، وكان لأرسطو الحظ الأوفر من هذه السنة حيث اشتهر بعرض الآراء السابقة عليه في كل مشكلة يعرض لها.[35] (روبير بلانشي، 2004م ص19).

ألف في شبابه كتبا عندما كان يدّرس بـ "الأكاديمية" L'ACADEMIE وهي مدرسة أسسها شيخه أفلاطون، يقال إنه ترسَّمَ فيها فلسفة وفكر شيخه؛ ولكنها ضاعت جميعا، ولم يبق منها إلا العناوين وبعض الأقوال التي حفظها عنه تلميذه "تيوفراسط"، ومنها كتاب في الخطابة الذي لا نعرف عنه سوى أنه كان سردا وجمعا لما قيل في هذه الصناعة حتى عصره.

وبعد وفاة أفلاطون (ت 348 ق.م) أسس أرسطو مدرسته المسماة: (LE LYCEE) واشتغل فيه بالتدريس مدة اثنتي عشرة سنة، ألقى فيها دروسا ومحاضرات، تخلص فيها شيئا فشيئا من تقليد شيخه، ليؤسس لفلسفة خاصة عرفت باسمه، وصارت تلك الدروس المحررة مرجعا يعود إليه طلابه، ولكنه لم ينشرها على الرغم من اعتزازه الشديد بها، وقد نسجت حول هذه الدروس أساطير غريبة؛ منها أنها أخفيت في كهف بعد وفاته. ومهما اختلفت الرؤى حول صحة هذه الرواية فإن عصارة جهد أرسطو الفلسفية في المنطق والأخلاق والسياسة والطبيعة لفَّها النسيان طيلة ثلاثة قرون بعد وفاة صاحبها ثم أخرجت للناس، وفي حوالي عام (60 ق.م) قام الخليفة الحادي عشر على رأس "الليسي" بعد أرسطو" أندرونيكوس الروديسي" "ANDRONICOS DE RHODES" بنشر هذه الدروس للمرة الأولى، وقد تصرف فيها من ناحية التصنيف والمصطلح، حيث قسمها إلى مجموعات بحسب المواضع المعالجة، وجعل كل مجموعة في كتاب، واختار لبعضها عناوين، وهذا صنيعه في دروس المنطق، فمصطلح (LOGIQUE) لم يطلقه أرسطو، وإنما أطلق على العلم الواقع تحت كلمة ANALYTIQUE وتعني التحليلات، وبعد أن فرغ من عمليتي التصنيف والمصطلح حصل على تسعة أجزاء أطلق عليها اسم الأرغانون L'ORGANON وتعني الآلة، قناعة منه أن " أرسطو كان يرى أن المنطق ليس جزءا من الفلسفة بل علما عقليا تحضيريا لها"[36] (روبير بلانشي، 2004م ص19)، أي ممهدا لها .

وأجزاء الأرغانون بالإضافة إلى مقدمة "فورفوريوس" - وهي عبارة عن تقديم عام للمنطق - هي:

1) إيساغوري وتعني المدخل.

2) كاتيغوريان وتعني المقولات.

3) باري أرمينياس وتعني العبارة.

4) أنالوتيكا الأولى وتعني التحليلات الأولى.

5) أنالوتيكا الثانية وتعني التحليلات الثانية.

6) توبيكا أي المواضع الجدلية.

7) سوفيستيكا وتعني السفسطة.

8) ريتوريكا وتعني الخطابة.

9) بويتيكا وتعني الشعرية.[37] (محمد سالم محمد الأمين الطلبة، 2008م، هامش الصفحة 31).

ومنذ القرون الأولى طفت مسألة اختلاف القدامى حول قضية ترتيب أندرونيكوس لأجزاء الأرغانون، ففي القرن الثالث بعد الميلاد عارض فورفوريوس - واضع مقدمة الأرغانون - بقوة من كان يصر على تقديم كتاب المقولات على كتاب المواضع، وحسب بلانشي فإن ترتيب " أندرونيكوس" استقر في الناس بداية القرن السادس للميلاد، وقد اعتمده محققو الكتاب ومترجموه حتى القرن العشرين، ومع هذا فقد استثيرت من جديد مسألة ترتيب الأجزاء بعد أن لوحظ عدم التناسق، والتفاوت في العمق، والتضارب أحيان[38].(هشام الريفي، 1998، ص87-88).

والشيء الملحوظ أن حمّى الاختلاف قد اشتدت حول ثلاثة أجزاء وهي:

1) التحليلات الأولى (LES PREMIERS ANALYTIQUES): وهو يتناول بحث القياس بحثا صوريا هدفه تتبع الأوجه الصحيحة في بناء الاستدلالات فقط.

2) التحليلات الثانية (LES SECONDS ANALYTIQUES) وهو مخصص لبحث ودراسة القياس القائم على مقدمات ضرورية يقينية (البرهان).

3) المواضع (LES TOPIQUES) وهو مخصص لدراسة وتطبيق نظرية القياس في مجال المشهورات أي القياس القائم على مقدمات ظنيّة.[39] (رشيد الراضي، 2010، ص 63).

وإذا كان واضحا - من خلال التسمية - أن التحليلات الأولى أسبق زمنيا من التحليلات الثانية فإن المعترك حصر بينها وبين المواضع، فابن سينا يرى بأن الأشبه أن يكون المعلم الأول قدم البرهان على سائر الفنون ومنها الجدل، لأن غايته أسمى وأفضل وهي الوصول إلى الحق واليقين، ومن حق الأهم أن يقدم كما يقدم الواجب قبل المستحب.[40] (هشام الريفي، 1998، ص91).

وفي مقابله نجد روبير بلانشي يقول: " يجب أن نتذكر أن تحليلات أرسطو (ANALYTIQUES) قد سبقتها تاريخيا الطوبيقا (المواضع) (LESTOPIQUES)، ويكون مؤلفه الخطابة (RHETORIQUE) امتدادا لذلك، فقبل أن يشرع في دراسة القياس البرهاني الاستدلالي فإنه كان قد حلل القياسات الجدلية، أي: الطرق العقلانية المستخدمة في المحادثات اليومية".[41] (عمارة ناصر، 2009م، هامش ص 22).

ويقول ابن رشد:" ولذلك قلَّما نجد أرسطو يبرهن شيئا في هذه العلوم (العلم الطبيعي، العلم الإلهي، العلم المدني) إلا قدم قبل البرهان على ذلك تشكيكا جدليا".[42]"(ابن رشد، 1992م، ص 501 - 502)؛ وبهذا يكون أرسطو قد اتخذ مجال المحتمل أرضية بنى عليها صروح اليقين البرهاني، وعلى هذا فالجدل بالنسبة إليه "مرحلة واسطة في الانتقال إلى اليقين البرهاني الذي لا يقبل " النقاش"، ويستعصي على التزييف والخداع".[43] (عمارة ناصر، 2009م، هامش ص12- 22).

فعلى الرغم من أن كتاب الجدل يأتي في الأرغانون بعد التحليلات، بِعَدِّها دراسة للاستدلال المبني على المقدمات الظنية تتلو الاستدلال البرهاني المبني على المقدمات اليقينية، فإنه مما لاشك فيه أنها قد سبقتها من الناحية الزمنية، بل يمكن أن يكون أرسطو قد عزم على أن يعمل للبرهان دراسة مماثلة لعمل الجدل التي كان قد فرغ منها، فوجد نفسه قد انساق إلى إعداد نظرية في القياس التحليلي على حد تخمين بعض الباحثين[44] (محمد سالم محمد الأمين الطلبة، 2008م، ص34)، ولا شك أن الرأي الثاني أرجح للأسباب التالية :

1) أن عمل أرسطو بدأ بنقد السفسطائيين" إذ نجده يركز على إنتاج الحجاج عندهم وما يتعلق به من آليات، وخاصة الشراك القولية التي كانوا ينصبونها للإيقاع بخصومهم، وقد ذكر أن لحجاجهم خمسة أهداف هي: التبكيت، والإيقاع في الخطأ، والدفع إلى مخالفة المشهور، واستعمال صيغ لغوية غير مألوفة، وأخيرا دفع المجيب إلى الكلام الفارغ "[45] ، والنقد يقتضي من صاحبه الإتيان بالبديل وهو القياس البرهاني.

2) أن الغرض القريب من وضع الأرغانون هو التعليم، وهو يقتضي منهجا تدريجيا يترقى فيه المتعلم من السهل إلى الصعب فالأصعب، ومن البسيط السهل إلى المركب المعقد " فأرسطو بحث حينئذ في الجدل (أي في القول الحجاجي) قبل أن يبحث في البرهان أي الأولى قادته إلى دراسة الاستدلال في القول الثاني".[46] (هشام الريفي، 1998، ص92).

3) هناك أمارات تدل على أن أرسطو قد مارس عمليات تصحيح وتنقيح على أجزاء الأرغانون، وهذا يحدث كثيرا لمن يبدأ التأليف في مرحلة مبكرة من حياته، بل ويحدث للإنسان بصفة عامة أن يعدّل ويراجع ويضيف، وهذه سمة غالبة على مؤلفات أرسطو الكبرى، لقد أكد الدارسون بما لا يدع مجالا للشك أنه ألف كتاب المواضع قبل كتابي التحليلات الأولى والثانية، وهناك دلائل أخرى تبين أن بعض أجزاء الأرغانون على الأقل لم تكتب على الصورة التي وصلتنا عليها دفعة واحدة، بل أجريت عليها فيما بعد تصحيحات وإضافات.[47] (هشام الريفي، 1998، ص91).

ومهما كان الأمر في مسألة الأرغانون وترتيب مسائله فإن المؤكد هو مخالفة أرسطو ELTOTSIRA (384 . 322 ق.م) لشيخه أفلاطون حيث فرق بين الجدل أي علم الآراء الاحتمالية - مقدماتها ظنية محتملة - ، وبين علم التحليلات أي علم البرهان - مقدماته يقينية - ، وبحثهما جنبا إلى جنب؛ جاعلا من الرأي والاحتمال والممكن والتخييل أهمية بالغة في حياة الناس وفي العملية التواصلية؛ لأنه فتح المجال أمام المخالف للإدلاء برأيه؛ وبذلك جسد الفكرة القائلة: أن أفلاطون رفع الفلسفة من الأرض إلى السماء بتجريده ومثاليته، وأرسطو أعادها إلى الأرض بدراسته الإنشائية التواصلية[48] (محمد سالم محمد الأمين الطلبة، 2008م، ص32). ومن هنا صار الحجاج علما قائما بذاته يسامي علم البراهين في المنزلة، بل صار مِهادا ينبنى عليه صرح علم البراهين؛ ولذلك قُدِّم عليه في الأرغانون على الراجح من القول.

2ـ الحجاج في الدرس اللساني

قبل أن نقف على نظرية الحجاج في اللغة لديكرو وزميله أنسكومبر لا بد من الإشارة إلى مسألتين مهمتين، أرى أنهما قد مهدتا لظهورها وهما:

ـ استعادة السفسطة لمجدها مع ديكارت: فعلى الرغم من الصفة القدحية السلبية التي ألصقها بهم أفلاطون ولازمتهم إلى عهد قريب، حتى صارت كلمة السفسطة مرادفة للكلام الفارغ عديم الجدوى، أو الكلام الذي لا يرجى من ورائه عمل، فإن الدراسات الحديثة قد أعادت لبعض الآراء السفسطائية قيمتها وروحها، ويتمثل ذلك في المدرسة الظاهراتيةLA PHENOMENOLOGIE بزعامة أدموند هوسرل LRESSUH DNUMDE (1859 - 1938)، الذي تشبع بالفلسفة الديكارتية القائمة على منهج الشك.

إن الفلسفة الديكارتية في نظر هوسيرل تكتسب قيمتها من رجوع ديكارت إلى ذاتية الإنسان ليؤسس بها وعليها بناء المعرفة، وقد توصل ديكارت وهو يطارد اليقين بالشك إلى مقولة "الكوجيطو" (أنا أفكر إذن أنا موجود) بعدّها اليقين المطلق، وبتعبير أوضح وأبسط فإن ديكارت وهو يشكك في كل شيء اكتشف حقيقة غير قابلة للتشكيك: أنا موجود لأنني أفكر، إن وجود العالم وكل المقولات العلمية والمعرفية هي موضع شك وخارج نطاق اليقين، إلا الذات الإنسانية التي تمارس الفعل التفكيري.[49] (عبد الكريم شرفي، 2007م، ص 87- 88 -89)، وهذا ما آمن به السفسطائيون حين جعلوا الإنسان مقياس كل شيء، وحوّلوا البحث من الطبيعة إلى الإنسان، ومن الموضوعية إلى الذاتية.

ـ بداية مرحلة الخطابة الجديدة: وهي مرحلة التجديد والانبعاث، وهو ما عرف بالخطابة الجديدة، وتبدأ بظهور الفيلسوف ورجل القضاء البلجيكي شايم بيرلمان CHAIM PERLEMAM، مع مؤلفه الخطابة الجديدة (AL EUQIROTEHR ELLEVUON)، [50](علي الشبهان، 2010م، ص 64)، إذ عُدَّ مجدِّدا للبلاغة في أوروبا مع مطلع النصف الثاني من القرن العشرين، بعد فترة ركود طويلة؛ ولكن مع ذلك فقد طغا المنطق الأرسطي على صنيعه ولم يستطع التخلص منه. إن "عقلنة الطرح ومنطقته من أهم الإضافات التي ألحقها "بيرلمان" بنظرية الحجاج، ومبعث ذلك المكانة التي رأى أن المنطق قد تبوّأها حديثا، والتي مكنته عن العدول من تكرار الأشكال القديمة، والأخذ في تحليل أدوات البرهان التي يستخدمها الرياضيون بالفعل"[51] (محمد سالم ولد محمد الأمين، مارس، 2000م، ص71)؛ ولذلك نجده يعرّف البلاغة الجديدة بقوله: "دراسة التقنيات الخطابية الموجهة لتحريض أو لزيادة الموافقة للفرضيات المقدمة لبعض المستمعين"[52] (بلعابد عبد الحق، جانفي 2006م، ص268)، وفي السنة نفسها (1958م) ألف ستيفن تولمان STYEPHEN TOULMIN كتابه الموسوم بـ "استعمالات الحجاج"(LES USAGES DE L'ARGUMENTATION) قارب فيه نظرية الحجاج من منظور منطقي، إذ حاول بناء نماذج نظرية تنطلق من مقدمات وتصورات معينة[53] (محمد طروس، 2005م، ص57)، فكان عمله هذا "أقرب إلى صناعة البرهان في المنطق، حيث يقصد بالبرهان إثبات الحق لا لإقناع الغير به"[54] (عبد الله صولة،2001، ص 29 . 30)، وهذا أهم فرق بينه وبين بيرلمان الذي كان يهدف إلى إقناع المستمع. ولعل هذين الأمرين عجلاّ ببروز المقاربة اللسانية للحجاج التي أثمرت نظرية الحجاج في اللغة. فما نظرية الحجاج في اللغة؟

1ـ3 ديكرو يتجاوز حفريات المنطق الأرسطي

انبثقت نظرية الحجاج في اللغة من رحم نظرية الأفعال اللغوية التي أسس بنيانها جون لانجشو أوستين البريطاني (Jhon Lanshaw Austin)(1911م 1960م)؛ أستاذ الفلسفة بجامعة أكسفورد حيث وضع نواة التداولية اللسانية المتمثلة في فكرة أفعال الكلام، حين ألف كتابا بعنوانHow to do things with words) ؛ وهو عبارة عن مجموعة من المحاضرات ألقاها في جامعة هارفاد سنة 1955م، ضمن برنامج سمي بـ: " محاضرات وليام جيمس (Wiliam James"[55](J-L Austin), 1970.P1-4، وجاء من بعده تلميذه سيرل (Searl) المولود سنة 1932م ، وأستاذ بجامعة بركل Berkeley بكاليفورنيا فبنى على ما ابتدأه فأحكم هذه النظرية، ووصلت درجة النضج.

جاء ديكرو فقام بتطوير أفكار هذه النظرية، وعلى الخصوص آراء أوستين، مقترحا إضافة فعلين لغويين آخرين هما: فعل الاقتضاء، وفعل الحجاج[56] (أبو بكر العزاوي، 2006م، ص55)، ومن الأخير انبثقت نظرية الحجاج في اللغة، "فما الفعل الحجاجي إلا نوع من الأفعال الإنجازية التي يحققها الفعل التلفظي في بعده الغرضي"[57](رتيبة محمدة بولدواني 2013م. ص 22). لقد ألف أوزوالد ديكرو (O. Ducrot) بمشاركة زميله جون كلود أنسكومبر (Jean Cloud Anscombre) كتابا بعنوان: "الحجاج في اللغة"(L'argumentation dans la langue)، حيث أسسا مفهوما جديدا للحجاج يختلف عن مفهوم بيرلمان وتيتيكا، ويقوم أساسا على اللغة بخلاف مفهوم بيرلمان القائم على تقنيات وأساليب في الخطاب، تكون شبه منطقية، أو شكلية، أو رياضية[58] (سامية الدريدي،2008، ص 22).

إذن هناك صنفان من الخطاب اللغوي يهدف أحدهما إلى نقل المعلومة كما هي دون زيادة أو نقصان؛ بَدءا بالأحداث الحقيرة إلى الأحداث الجليلة، ويدخل فيه الأخبار اليومية والنظريات العلمية، حيث يؤدي فيها المرسل دور الصحفي أو الراوي، ويشترط فيه الصدق والموضوعية مكتفيا في ذلك بنقل المعلومة الخبر إلى المتلقي لتفهم وتعلم فقط.

أما ثانيهما فيتجاوز به صاحبه الفهم إلى غاية أبعد ألا وهي إقناع المتلقي بمحتوى خطابه، ومن ثمَّ صدقها الذي غالبا ما يترجم إلى سلوكات عملية بالفعل، أو الكف، والترك. إنهما يرفضان المبدأ القائل: إن اللسان يستخدم للتواصل بالمعنى الضيق للعبارة، أي لنقل المعلومة أو الخبر " إننا نريد أن نصل إلى القول إن الإخبارية في الواقع تعد من درجة ثانية بالمقارنة مع الحجاجية، فالزعم بوصف الحقيقة قد لا يكون إذن إلا قِناعا لزعم أكثر جوهرية بممارسة ضغط على آراء الآخر[59]. (صابر الحباشة، 2007م، ص197).

لقد بيّنا أن" اللغة حجاجية في ذاتها أي أنها لا تحمل فقط معلومات وتعبيرا، ولكنها تحتوي في نفسها، وبصرف النظر عن استعمالها في السياق على عناصر حجاجية بحتة "[60]. (كورنيليافون راد صكوحي، 2001، ص 32) فالملفوظات إذن تتضمن قضية حجاجية ليست مضافة أو دخيلة، ولكنها كامنة في اللغة بوصفها عمادا لكل دلالة، وعليه فالحجاج لم يعد نشاطا لسانيا ثانويا من بين أنشطة أخرى، ولكنه أساس المعنى عينه، وأساس تأويل الخطاب[61] (صابر الحباشة، ص197)؛ ومع العوامل التداولية الخارجية تشتد الظاهرة وتتقوى. " فالحجج لا تنبني في فراغ ولا تصاغ في مجال معزول، أو سياق منفصل عن شروط تكوُّنه وسيرورته"[62] (عمارة ناصر، ص99). فاللغة تحمل بعدا حجاجيا في جميع مستوياتها، فهي عند أوزوالد ديكرو وسيلة للسجال بين الذوات البشرية، والحجاج جوهرها بصرف النظر عن استعمالاتها المختلفة[63] (عبد الها صولة، ص 38).

وتجدر الإشارة إلى أهم مفهوم في نظرية ديكرو وزميله- الحجاجية هو التوجيه (L'orientation)؛ إذ حصرا فيه غاية الحجاج ووظيفته، فحينما نقول لشخص ما: إن هذا الفندق

مريح وتتوفر فيه جميع وسائل الراحة، فنحن لا نريد إخباره بذلك بقدر ما ندعوه إلى زيارته، فنحن جهدنا أنفسنا في توجيهه إلى استنتاج أن إقامته بهذا الفندق سيكون لها الأثر الإيجابي عليه، ومن ثم فهي دعوة للإقامة بهذا الفندق، فالإخبارية إذن ثانوية بالنسبة للوظيفة الحجاجية[64] (عمر بلخير، 2003م، ص 123).

وهذه التوجيهات الحجاجية(Orientationsargumentatives) هي التي تسمح باتباع ملفوظ معين لملفوظ آخر، وتمنع متابعته بملفوظات أخرى، أي أنها ترجح نتيجة معينة دون غيرها من النتائج، التي قد تكون مصرحا بها أو متضمنة في القول.

و جملة القول أن نظريتهما تقوم على ثلاثة أسس وهي:

1- الوظيفة الأساسية للغة هي الحجاج.

2- المكون الحجاجي في المعنى أساسي، والمكون الإخباري ثانوي.

3- عدم الفصل بين الدلاليات والتداوليات[65] (مليكة غبار وآخرون، 2006م، ص53)؛ فما هو المنطق الذي ترتكز عليه نظرية الحجاج في اللغة؟

2.3 ديكرو يقترح منطق اللغة

منطق اللغة (La logique du langage) هو مصطلح اقترحه ديكرو في سياق رده على الباحثين عن المنطق في اللغة، سواء أكان هذا المنطق أرسطيا، أم تأليفيا، أم منطق المحمولات، أم غير ذلك[66] (أبوبكر العزاوي ، 2010م، ص16.)، فما المراد بالمنطق الطبيعي للغة؟ قبل الإجابة عن هذا السؤال الجوهري في بحثنا يجب أن نعترف بحقيقة صعوبة تحديد هذا المصطلح بدقة لاتساع دائرته المفهومية؛ فهي تشمل كل أنواع المنطق التي لا تتنزل في المنطق الصوري والرياضي[67] (أبو بكر العزاوي، 2006م، ص17).

لاحظ ديكرو أن بين بعض الأقوال اللغوية المتوالية تتشكل " تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب، وبعبارة أخرى...متواليات من الأقوال، بعضها هو بمثابة الحجج اللغوية، وبعضها الآخر هو بمثابة النتائج التي تستنتج منها. إن كون اللغة لها وظيفة حجاجية يعني أن التسلسلات الخطابية محددة لا بواسطة الوقائع المعبر عنها داخل الاقوال فقط، ولكنها محددة أيضا بواسطة بنية هذه الأقوال نفسها، وبواسطة المواد اللغوية التي تم توظيفها وتشغيلها"[68] (أبو بكر العزاوي 2006م، ص55).

إن منطق اللغة "يعني وجود طابع استدلالي في بنية اللغة الطبيعية، ووجود علاقات استنباطية بين مكوناتها دون اللجوء إلى اصطناع هذه المكونات أو صورنتها"[69](عمارة ناصر، ص 104). وهذا ما أكده ديكرو حين قال:" توجد بين بعض ملفوظات اللغة الطبيعية علاقات حتمية، حيث إننا عندما نقبل هذه الملفوظات؛ نكون مجبرين على تقبل بعضها الآخر"[70] (عمارة ناصر ، ص104 -105).

ومن هنا لزمنا التفريق بين الاستدلال (Raisonnement)، وبين الحجاج (Argumentation) لأنهما ينتميان إلى نظامين مختلفين تماما هما: نظام المنطق، ونظام الخطاب[71] (أبو بكر العزاوي، ص57). فالاستدلال عملياته منطقية صرفة، مصدرها المنطق الأرسطي، و هو يقتضي أن تكون كل عناصره أحادية المعنى وغير قابلة للتعدد والاشتراك، بحيث تكون مكوناته مفهومة لدى الجميع بلا خلاف بينهم، وهو كذلك غير مرتبط بمقام معين، فهو استنباط لنتائج ضرورية من مقدمات يقينية، وذلك مجال بحث المناطقة الساعين إلى شكلنة الأنظمة بصرف النظر عن محتوياتها.

أما الحجاج فهو على العكس من ذلك كله، فمن خصائصه التعدد، والاختلاف والخصوصية، والمقامية، فالحقيقة فيه ليست مضمونة، ولا ضرورية، ولا أحادية، بل هي نسبية ذاتية لكن لا إلى غير حد؛ لأنها -عملية التحاج- تجري في مقام معين وتحت أنظار جمهور سواء أكان كونيا أم خاصا[72] (عبد الله صولة ، 2011م، ص14-15).

و يمكن أن نضرب لهما المثالين التاليين:

1) كل اللغويين علماء.

- زيد لغوي.

- إذن زيد عالم.

2) انخفض ميزان الحرارة.

- إذن سينزل المطر.

فالمثال الأول يتعلق ببرهنة أو قياس منطقي (Syllogisme)، ونتيجة أن زيد عالم حتمية ضرورية لأسباب منطقية. أما استنتاج نزول المطر في المثال الثاني فهو احتمالي[73] (أبو بكر العزاوي، 2009م، ص20)، وهذا هو المجال الذي تبحث فيه نظرية الحجاج في اللغة.

وخلاصة القول: "هي نظرية تتعارض مع كثير من النظريات والتصورات الحجاجية الكلاسيكية التي تعدُّ الحجاج منتميا إلى البلاغة الكلاسيكية (أرسطو)، أو البلاغة الحديثة (بيرلمان، أولبرخيت تيتيكا، أو ميشال ميير)، أو منتميا إلى المنطق الطبيعي (جان بلير غريز)"[74] (سامية الدريدي، ص 22).

إنها نظرية تميز بين نظامين مختلفين، نظام تسميه المنطق، وآخر تسميه الخطاب، ولكل منهما منطقه ومنهجه، فانظر كيف دارت الدائرة البحثية لتعود إلى الأصل الأول، وبعبارة أدق إلى المرحلة الأولى من مراحل الدرس الحجاجي، إنها المرحلة السفسطائية التي كانت تعتمد على اللغة واللغة فقط، ولم يكن حينئذ قد عُرف المنطق أصلا، ومع ديكرو وأنسكومبر اتضحت المقاربة اللغوية التي تناولت الحجاج من زاوية تداولية قولية صرفة، ممّا أعطى انطباعا أنّ السفسطة لم تعد مرادفة للكلام الفارغ.

خاتمة

وفي خاتمة هذا البحث يمكن أن نسجل النتائج التالية:

أولا: الحجاج في اللغة نظرية غربية دلالية حديثة تقدم تصورا جديدا للمعني من حيث طبيعته ومجاله، وهي تندرج ضمن تيار حديث في اللسانيات، ظهرت على يد الألسني الفرنسي "ديكرو"، بعد ظهور كتابه "الحجاج في اللغة" عام 1983م، مفادها أن اللغة تحمل في جوهرها بعدا حجاجيا، ومن ثَمَّ فهي لا ترى بأن الوظيفة الإبلاغية الإخبارية هي الوظيفة الأساس والوحيدة للغة، بل إن الوظيفة الحجاجية هي أهم وظائفها، وتلقفها عنه الباحثون العرب ومنهم: أبو بكر العزّاوي، وعبد الله صولة، وسامية الدريدي وغيرهم.

ثانيا: الحجاج فعالية تداولية خطابية حوارية إقناعية، تعتمد الحجج اللغوية وسيلة لها - بدل الحجج البرهانية- لنتائج معينة، وهو ما يعرف بمنطق اللغة الطبيعية؛ فتغيير زاوية البحث، وتطوير الأدوات المنهجية والمعرفية في دراسة البلاغة، من شأنه الإسهام في التأسيس لثقافة الحوار، والنقد البناء، والانفتاح على الآخر وقبوله، وفي هذه الحال يمكن القول بأن البلاغة قد استعادت مجدها ووظيفتها، وخلعت من عنقها غلَّ المغالطة والخداع الذي وضعه السفسطائيون، وصرامة المنطق الأرسطي.

ثالثا: مّرت النظرية الحجاجية بمراحل مختلفة، تجاذبتها منازع مختلفة كالخير واللذة، واليقين والظن، والموضوعية والذاتية، وفي كل مرحلة كان يعلو فيها مبدأ ويخبو آخر، واستدارت المرحل الأربع لتعود الكلمة الأخيرة للغة كما كانت زمن السفسطة، لكن بعيدا عن الخداع والمغالطة وذلك في الحقيقة نصر للغة وتبرئة لها مما علق بها.

الهوامش

1- علي الشبهان، الحجاج والحقيقة وآفات التأويل (بحث في الأشكال الإستراتيجيات) ، دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة الأولى، عام 2010م.

2- رشيد الراضي: الحجاج والمغالطة من الحوار في العقل إلى العقل في الحوار، دار الكتاب الجديدة المتحدة، الطبعة الأولى، عام 2010م.

3- هشام الريفي: الحجاج عند أرسطو، ضمن كتاب: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية، إشراف حمادي صمود، منوبة، تونس، د - ط، عام 1998م.

4- محمد سالم محمد الأمين الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة، بحث في بلاغة النقد المعاصر، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، عام 2008م.

5- الزاوي بغورة: الفلسفة واللغة نقد المنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة، دار الطليعة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، عام 2005م.

6- روبير بلانشي: المنطق وتاريخه من أرسطو إلى راسل، ترجمة محمد اليعقوبي، دار الكتاب الحديث القاهرة، د-ط، 2004م.

7- أحمد أمين وزكي نجيب محمود: قصة الفلسفة اليونانية، مطبعة الجنة للتأليف والترجمة والنشر، الطبعة الخامسة، عام 1964م.

8- عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، عام 2004م.

9- أندريه لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب: خليل أحمد خليل، إشراف أحمد عويدات، منشورات عويدات، بيروت ، باريس، الطبعة الأولى 1996م، المجلد الأول.

10- عمارة ناصر: الفلسفة والبلاغة، مقاربة حجاجية للخطاب الفلسفي، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، عام 2009م.

11- ابن رشد:" نص تلخيص منطق أرسطو، كتاب طوبيقي وسوفسطيقي أو كتاب الجدل والمغالطة، تحقيق جيرارجيهامي، دار الفكر اللبناني، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، عام 1992م.

12- جورج طربيشي: معجم الفلاسفة، دار الطليعة، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، عام 2006م.

13- محمد على أبو ريان: تاريخ الفكر الفلسفي، الفلسفة اليونانية من طاليس إلى أفلاطون، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، عام 2007م.

14- عبد الكريم شرفي: من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، دراسة تحليلية نقدية في النظريات الغربية الحديثة، الدار العربية للعلوم، ناشرون، الطبعة الأولى، عام 2007م.

15- بلعابد عبد الحق: تداوليات الخطاب القانوني، مجلة اللغة والأدب، العدد 17 جانفي 2006م، الصادرة عن جامعة الجزائر.

16- محمد طروس: النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، دار الثقافة، المغرب، الطبعة الأولى، 2005م.

17- عبد الله صولة: الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، جامعة منوبة، تونس، كلية منوبة، عام 2001م.

18- سامية الدريدي: دراسات في الحجاج، قراءة لنصوص مختارة من الأدب العربي القديم، عالم الكتب الحديث، الطبعة الأولى، 2009م.

19- Quand dire c' est faire (how to do things with words . J-L Austin) Tra . Gilles Lan . Seuil . 1970 .

20- أبو بكر العزاوي: الحجاج والمعنى الحجاجي، مقال ضمن كتاب: التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه، تنسيق: حمّو النقاري، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، الطبعة الأولى، 2006م.

21- رتيبة محمدة بولدواني: آليات الحجاج والتواصل في ضوء النظرية التداولية، مجلة مقاربات، دورية محكمة تهتم بالبحث العلمي، العدد الثاني عشر، فاس، المغرب ،المجلد السادس 2013م.

22- سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني وبنيته الأسلوبية، عالم الكتاب الحديث للنشر والتوزيع، جدار للكتاب العالمي، إربد، الأردن، الطبعة الأولى، عام 2008م.

23- صابر الحباشة: تلوين الخطاب فصول مختارة من اللسانيات والعلوم الدلالية والمعرفية والتداولية والحجاجية ، الدار المتوسطية للنشر ، تونس، الطبعة الأولى، 2007م.

24- كورنيليافون راد صكوحي: الحجاج في المقام المدرسي ملاحظات حول تعليم الحجاج في المرحلة الثانية في التعليم الأساسي، تحت إشراف: فريق البحث في البلاغة والحجاج برئاسة حمادى صمود، كلية الآداب، منوبة، تونس، 15 أفريل، 2001م.

25- عمر بلخير: تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، منشورات الاختلاف، الجزائر، الطبعة الأولى، 2003م.

26- مليكة غبار وآخرون: الحجاج في درس الفلسفة، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، د- ط، 2006م.

27- أبوبكر العزاوي: حوار حول الحجاج، الأحمدية للنشر، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 2010م.

28- أبو بكر العزاوي: الخطاب والحجاج، الأحمدية للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2006م.

29- عبد الله صولة: في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، مسكيلياني للنشر والتوزيع، تونس، الطبعة الأولى، 2011م.

30- أبو بكر العزاوي: اللغة والحجاج، تنضيد وإخراج: حسين طه، مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، لبنان، د- ط، عام2009م.